القسم الثالث

المحصول النظرى

الفصل الثامن

الجهاز النفسى والعالم الخارجى

من البين أن كل الآراء والفروض العامة التى وضعناها فى الفصل الأول ، توصلنا إليها بعمل صعب عسير أوردنا مثالا له فى القسم السابق . وذلك ما يغرينا الآن باستعراض ما أضافه إلى معرفتنا مثل هذا العمل ومعرفة أى طرق للبحث المستقبل قد فتحناها أمامنا . وهنا قد نعجب لأننا اضطررنا فى أغلب الأحيان إلى المضى إلى ما وراء حدود علم النفس . فإن الظواهر التى تناولناها بالدرس لا تتصل بعلم النفس وحده ، بل إن لها أيضاً جانباً عضوياً بيولوجياً ؛ ومن ثمة فقد تأدينا ، ونحن نجهد فى بناء التحليل النفسى ، إلى كشوف بيولوجية هامة ، ولم نحجم عن تكوين فروض بيولوجية جديدة .

ولكن فلنقتصر بادئ ذى بدء على علم النفس . فقد اكتشفنا أن من المحال علمياً أن نضع خطاً فاصلا بين ما هو سوىّ وما هو شاذ من الناحية النفسية ، بحيث لا يكون لهذا التمييز إلا قيمة اعتبارية ، رغم أهميته العملية . وبذلك أثبتنا حقنا فى تفهم الحياة النفسية السوية بدراسة اضطراباتها ، وهذا لا يتيسر إذا كانت هذه الأحوال المرضية من أعصبة وذهانات لها علل نوعية على نمط الأجسام الغريبة .

وقد ساعدتنا دراسة الاختلاط النفسى الذى يحدث أثناء النوم ، وهو حالة عابرة لا ضرر منها بل وتقوم بوظيفة نافعة ، فمكنتنا من فهم الأمراض النفسية وهى أحوال دائمة تقوض حياة المريض . ويحق لنا الآن أن نقرر أن سيكولوجية الشعور لم تكن أقدر على فهم العمليات السوية للنفس منها على فهم الحلم . ولقد قام الدليل دائماً على أن وقائع الإدراك الشعورى للذات ، وهى التى لم نكن نملك سواها ، تقصر دائماً عن الإحاطة بتعدد العمليات النفسية وتعقدها ،

وعن كشف علاقاتها المتبادلة ، وبالتالى عن التوصل إلى تحديد شروط اضطرابها .

ولقد ذهبنا إلى فرض وجود جهاز نفسى ، ممتد فى المكان ، ومركب تركيباً مناسباً ، وينمو وفقاً لمقتضيات الحياة ، ولا تبدو فيه ظواهر الشعور ، إلا عند نقطة خاصة ، وفى ظروف معينة . وقد أتاح لنا هذا الفرض أن نقيم علم النفس على أسس مشابهة لما قامت عليه العلوم الأخرى ، كالفيزيقا مثلا ، ونجد أن المهمة ههنا لا تختلف عنها فى العلوم الأخرى : فوراء إدراكنا للخصائص المباشرة (الكيفيات) لموضوع البحث علينا أن نكتشف شيئاً أدق مما تدركه حواسنا وأقرب إلى ما يمكن أن يكون واقع الأشياء . ولا أمل لنا فى بلوغ الواقع ذاته ، إذ أن من الواضح أن كل جديد نستنتجه يجب أن يترجم ثانية إلى لغة مدركاتنا الحسية التى يستحيل علينا أن نتحرر منها . ولكن ذلك بالذات هو طبيعة علمنا وحدوده . وبيد الأمر كما لو كنا نقول فى الفيزيقا مثلا ، لو استطعنا أن نرى بوضوح كاف لأدركنا أن ما يظهر لنا موضوعاً صلباً يتكون فى الحقيقة من جسيمات ذات شكل معين وأحجام معينة ووضع معين . ومن هنا نحاول أن نزيد من مقدرة أعضائنا الحسية ما أمكننا بوسائل صناعية ، ولكن يجب أن نذكر أن هذه الجهود تخفق فى بلوغ النتيجة النهائية وسيظل الواقع « مستعصياً على الإدراك أبداً » . وكل ما يفيده البحث العلمى من إدراكاتنا الحسية الأولية هو الكشف عن الروابط والعلاقات الموجودة فى العالم الخارجى ، والتى يمكن أن نمثلها ونستعيدها فى عالمنا الفكرى الداخلى ، وتعيننا معرفتها على « فهم » بعض ظواهر العالم الخارجى والتنبؤ بها ، وتغييرها إن أمكن . وهذا على التحديد ما نعمله فى التحليل النفسى ، فقد اكتشفنا طريقة فنية مكنتنا من ملء الثغرات فى ظواهر الشعور ، ونحن نستعين بها كما يستعين عالم الفيزيقا بالتجريد . وبهذه الطريقة استنتجنا عدداً من العمليات التى لا سبيل إلى إدراكها فى ذاتها وبذاتها ، وأضفناها إلى العمليات التى ندركها . وحينما نقول مثلا : « هنا تسللت ذكرى لاشعورية » فإن هذا معناه « هنا عرض

أمر لا يمكن أن نتصوره ، ولكنه لا يمكن ، إذا بلغ شعورنا ، إلا أن يوصف بأنه كذا وكذا » .

ولاشك أن حقنا فيما ذهبنا إليه من نتائج وتعميما ت ومدى درجة اليقين فيها ، سيبقى عرضة للنقد فى كل مثال ، وعلينا أن نعترف بأنه كثيراً ما يتعذر علينا أن نحسم فى الأمر ، مما كان سبباً فى تعدد آراء كثير من المحللين . ولا شك أن جدة المشكلة ، ومن قلة التدريب ، مسئولة عن هذا إلى حد ما . غير أن ثمة عاملا خاصًا يرجع إلى طبيعة الموضوع ذاته ، إذ تختلف الموضوعات فى علم النفس عنها فى علم الطبيعة ، لأنها لا تقتصر على إثارة اهتمام علمى بالغ . فلا عجب إذن أن نجد محللة لم تكن قد اقتنعت إقتناعاً كافياً بشدة رغبتها فى القضيب ، تخفق فى تبين أهمية هذا العامل عند مرضاها . ولكن مصادر الأخطاء هذه الناشئة عن المعادلة الشخصية ليست لها أهمية كبيرة فى نهاية الأمر . وعند ما نتصفح المراجع القديمة فى استخدام الميكروسكوب ، نعجب — والطريقة ما تزال ناشئة — لما كان يشترط فى شخصية الملاحظ الذى يستخدم الجهاز من شروط . ولا نجد من هذا الآن شيئاً .

ولا يسعنا فى هذا المقام أن نحاول تصوير الجهاز النفسى ووظائفه تصويراً كاملا . ولو فعلنا لحال دون ذلك أن التحليل النفسى لم يتسع له حتى الآن أن يدرس هذه الوظائف جميعا على السواء ، فلنكتف إذن بتلخيص وافٍ لنتائجنا فى جزئنا التمهيدى .

يتألف لب وجودنا إذن من « الهو » المعتم ، الذى لا علاقة مباشرة له بالعالم الخارجى ، بل إنه لا يعرض لمعرفتنا إلا بواسطة منظمة نفسية أخرى . وفى هذا الهو ، تعمل الغرائز العضوية التى تتكون ذاتها من امتزاج قوتين أوليتين (الإروس والتدمير) بنسب متفاوتة . وتتفاضل إحداهما عن الأخرى من خلال علاقتها بالأعضاء أو بمجموعات الأعضاء . وهم هذه الغرائز الأول هو الحصول على الإشباع الذى ترقبه عن طريق تغييرات الأعضاء بمساعدة موضوعات العالم الخارجى . وإشباع الغرائز إشباعاً عاجلا مطلقاً ، كما يشتهى الهو ، يفضى

إلى صراع خطر مع العالم الخارجي ويؤدى إلى الدمار . ولا يحفل الهو بما يكفل المستقبل ، ولا يعتوره القلق ؛ وربما كان الأصح أن نقول إن الهو ، وإن كان يساهم فى العناصر الحسية للقلق ، إلا أنه لا يستغلها . وتختلف العمليات التى تقع لهذه العناصر النفسية للهو أو تقع فيما بينها « العمليات الأولية » اختلافاً كبيراً عن العمليات المألوفة لنا بالإدراك الشعورى فى حياتنا الانفعالية والإدراكية . ولا تخضع لما يفرضه المنطق من قيود النقد ، إذ ينبذ المنطق بعض هذه العمليات بوصفها باطلة ، بل وقد يسعى إلى القضاء عليها .

ولما كان الهو بمنأى عن العالم الخارجى ، كان له عالمه الخاص من الإدراك الحسى . فهو يلمس بدقة بالغة بعض التغيرات التى تطرأ عليه من الداخل ، ولا سيما تذبذب التوتر فى حاجاته الغريزية ، وهو تذبذب يستشعر فى أحاسيس توالى اللذة والألم . ولا شك أن من الصعب تعيين الأعضاء الحسية الطرفية التى تسلكها وتصدر عنها هذه الأحاسيس . ولكن الذى لا شك فيه أن الإدراكات الحسية الذاتية ، أى المشاعر الحشوية ومشاعر اللذة والألم ، تستبد بالسيطرة على أحداث الهو . فالهو يخضع لمبدأ اللذة الذى لا مفر منه . ولكنه لا ينفرد بذلك ، إذ يبدو أن نشاط المنظمات النفسية الأخرى يتجه إلى تعديل مبدأ اللذة فحسب ، ولكنه لا يملك القضاء عليه ؛ وهنا تجابهنا مسألة نظرية على جانب كبير من الأهمية ولم تجد لها جواباً بعد وهى : متى وكيف يمكن التغلب على مبدأ اللذة ؟ وإن اعتبار أن مبدأ اللذة يقتضى خفض توترات الحاجات الغريزية ، بل والقضاء عليها فى نهاية الأمر (النرفانا) يؤدى بنا إلى العلاقات التى لم تقدَّر بعد والتى تربط مبدأ اللذة بالقوتين الأوليتين : الإروس وغريزة الموت .

أما المنظمة النفسية الأخرى ، نعنى الأنا ، فنعتقد أننا نعرفها معرفة أفضل ، كما أنا نستبين فيها أنفسنا فى يسر . وقد تكونت هذه المنظمة من الطبقة اللحائية للهو ، فكانت متصلة اتصالا مباشراً بالعالم الخارجى (الواقع) حيث قد تم إعدادها لتلقى التنبيهات واستبعادها . ويبدأ الأنا من الإدراك الحسى الشعورى ،

ثم يوسع نطاقه ويمده إلى طبقات أعمق فأعمق من الهو . وفى اعتماده على العالم الخارجى ، إشارة إلى أصله الذى لا يمحى (من قبيل : صنع فى ألمانيا مثلا)[١] . وتنحصر وظيفته النفسية فى الارتقاء بالعمليات التى تجرى فى الهو إلى مستوى دينامى أعلى (وربما كان ذلك بتحويل الطاقة المتحركة الحرة إلى طاقة مقيدة تقابلها الحالة القبلشعورية) . وتنحصر وظيفته الإنشائية فى وضعه ، بين المطلب الغريزى والفعل الذى يشبعه ، نشاطاً ذهنياً يسعى إلى التنبؤ بنتيجة المحاولات المقصودة على ضوء الحاضر واستغلال الخبرات السابقة . وعلى هذا النحو يصل الأنا إلى تقرير ما إذا كان ينبغى المضى فى محاولة الإشباع أم إرجاؤها أم القضاء كلية على مطلب الغريزة بمثابته خطراً (مبدأ الواقع) . وكما أن الهو لا يستهدف إلا الحصول على اللذة ، فإن الأنا لا يعنى إلا بتوفير الطمأنينة . فقد أخذ الأنا على عاتقه مهمة حفظ الذات ، تلك المهمة التى يبدو أن الهو قد أهملها . ويستخدم أحاسيس القلق نذيراً بالأخطار التى تتهدد تكامله . ولما كان يمكن للذكريات أن تصبح شعورية فى صورة إدراكات حسية ، لا سيما لارتباطها بالبواقى اللفظية ، قام احتمال خلط يؤدى إلى سوء إدراك للواقع . ويقى الأنا ذاته منه عن طريق إيجاد اختبار الواقع ، الذى فشل فى الحلم — حتماً — بسبب ظروف حالة النوم . والأخطار التى تتهدد الأنا والتى يتعين عليه مقاومتها فى محيط من القوى الآلية الطاغية ، تأتى أولا من الواقع الخارجى ، ولكنها لا تقتصر عليه . فالهو ذاته مصدر أخطار مماثلة ، ومرجع هذا فى الواقع إلى سببين :

أولا : أنه يمكن لقوة غريزية بالغة العنف أن تلحق بالأنا من الأذى ما يلحقه به « منبه » بالغ القوة من العالم الخارجى . صحيح أن هذه القوة البالغة لا يمكن أن تدمره ؛ وإن كان يمكن أن تدمر تنظيمه الدينامى الخاص به ، وأن تحيل الأنا ثانية إلى جزء من الهو .

وثانياً : أن الأنا تعلم بالتجربة أن إشباع مطلب غريزى محتمل فى حد ذاته قد يسبب أخطاراً فى العالم الخارجى ، بحيث يصبح أى مطلب غريزى

---

(١) [بالإنجليزية فى الأصل] (المترجمان) .

من هذا النوع خطراً فى حد ذاته . وبذا يحارب الأنا فى جبهتين : فعليه أن يدافع عن وجوده ضد عالم خارجى يهدده بالإفناء ، وضد عالم داخلى يرهقه بالمطالب. ويستخدم الأنا طرقاً مماثلة فى وقاية ذاته من عدويه ، وإن كان دفاعه ضد العدو الداخلى غير كاف خاصة . ونظراً لوحدة الأصل واشتراكهما الوثيق فى الحياة فيما بعد ، فمن العسير الهرب من الأخطار الداخلية . فهى تظل تهدده ، حتى وإن أمكن تقييدها وقتاً ما .

رأينا كيف أن الأنا الضعيف ناقص النمو فى عهد الطفولة الأول يصاب بأضرار مستديمة بما يبذل من مجهود لدرء الأخطار الخاصة بهذا العهد عن الحياة. ويحتمى الطفل من الأخطار التى تهدده فى العالم الخارجى بما يلقى من والديه من رعاية ، ويدفع ثمن هذه الطمأنينة قلقاً من فقدان الحب يسلمه إلى العجز تجاه أخطار العالم الخارجى . ويؤثر هذا العامل تأثيراً حاسماً فى نتيجة الصراع حين يدلف الصبى إلى الموقف الأوديبى ، حيث يستحوذ عليه تهديد الخصاء الذى ينال من نرجسته بعد أن يكون قد تعزز بمصادر سالفة. ويتضافر هذان التأثيران : تأثير الخطر الواقع المباشر ، وتأثير الخطر الذى يرجع أساسه إلى تاريخ السلالة الإنسانية ويُدَّخر فى الذاكرة ، فيبعثان الطفل على اتخاذ إجراءات دفاعية (أنواع الكبت) . ولكن هذا الدفاع ، وإن يكن ناجعاً بصورة مؤقتة ، يسفر عن نقصه حين يؤدى تنشيط الحياة الجنسية إلى زيادة المطالب الغريزية التى سبق نبذها . ومن ثمة فإن وجهة النظر البيولوجية لا بد أن تفسر أن الأنا يفشل فى مهمة السيطرة على تهيجات العهد الأول للجنسية بينما عدم نضجه يجعله عاجزاً عن ذلك . ونحن نرى أن الشق الجوهرى للأعصبة ينحصر فى هذا التأخر فى نمو الأنا بالنسبة إلى نمو الليبيدو ، وأن من المحال تجنب استنتاج أن من الممكن تفادى الأعصبة لو جنب الأنا الطفلى هذه المهمة ، أى لو تركت الجنسية الطفلية تزدهر بلا عائق ، كما هو الحال لدى كثير من الشعوب البدائية . وقد تكون أصول الاختلالات العصابية أعقد مما أوضحناه هنا ؛ إذ ذاك نكون قد أبرزنا على الأقل جزءاً جوهرياً من هذه الأصول المعقدة . وعلينا ألا ننسى كذلك

التأثيرات السلالية الكامنة فى أعماق الهو ، على شكل لم نتوصل بعد إلى معرفته ، وتأثيرها فى الأنا فى بواكير الطفولة أقوى منه فى أى عهد آخر من الحياة . ومن ناحية أخرى فإننا نحدس أن هذا الحجز المبكر للغريزة الجنسية ، وهذا التحيز من جانب الأنا الفتى للعالم الخارجى على حساب العالم الداخلى ، وهو تحيز يصدر عن التحريم المفروض على الجنسية الطفلية ، لابد وأن يؤثر فى القابلية الحضارية اللاحقة للفرد . فالمطالب الغريزية التى تحرم من الإشباع المباشر ، حتى تجبر على سلوك طرق أخرى تجد فيها إشباعاً بديلا ، يمكن أن تفقد طابعها الجنسى إبان هذا المنعطف وتتخلص من الروابط التى تربطها بالأهداف الجنسية الأولى. ونخلص من ذلك إلى أن كثيراً من تراثنا الحضارى الذى نعتز به قام على حساب الجنسية ، نتيجة لتقييد قوى الغرائز الجنسية .

وما فتئنا نردد بلا ونى أن الأنا يدين بأصله كما يدين بأهم خصائصه المكتسبة لعلاقته بالعالم الخارجى الواقعى. فمن اليسير علينا إذن أن نسلم بأن الحالات المرضية للأنا ، التى غالباً ما يزيد فيها اقتراباً من الهو ، تقوم على تعطل هذه العلاقة بالعالم الخارجى أو انقطاعها . وهاك واقعة تؤيد ذلك : تعلمنا الخبرة الإكلينيكية أن هناك باعثين يؤديان إلى ظهور الذهان : فإما أن يكون الواقع قد غدا أمراً مؤلماً لا يطاق ، أو أن تكون الحوافز قد عززت تعزيزاً هائلا ، وهو أمر لا بد أن يحدث فى الأنا آثاراً مماثلة ، لوجود المطالب المتنافسة للهو والعالم الخارجى . وكان يمكن أن تكون مشكلة الذهان بسيطة واضحة لو كان الأنا قد انقطعت صلته بالواقع تمام الانقطاع ، ولكن هذا أمر لا يحدث إلا نادراً ، بل ويحتمل ألا يحدث أبداً . وحتى بالنسبة إلى الأحوال البعيدة عن واقع العالم الخارجى بُعدَ الأحوال الهلوسية المختلطة (Amentia) ، فإن المرضى يقررون ، عند شفائهم ، أنه فى ركن قصى من عقلهم ، على حد تعبيرهم ، كان يقبع شخص سوىّ حريص على الاختباء يدع العملية المرضية بأسرها تمضى أمام ناظريه ، وكأنه مشاهد محايد . ولست أدرى إن كان يمكن أن نفترض أن الأمور تمضى دائماً على هذا النحو وإن كنت أستطيع الإدلاء بمعلومات مماثلة بشأن ذهانات أخرى

أقل خطورة . وأذكر حالة بارانويا مزمنة ، كان المريض فيها — عقب كل نوبة من الغيرة — يدلى بحلم يزود المحلل بتصور صحيح للموضوع خال تماماً من شوائب الهذيان . وهكذا كان يتجلى تباين شائق : فبينما تكشف لنا أحلام العصابى عادة غيرةً غريبةً لا يشعر بها المريض فى حياة اليقظة ، نجد لدى الذهانى أن الهذاء فى حال اليقظة يصححه حلم . وقد يكون بوسعنا أن نقرر أن ما يحدث فى كل الحالات المماثلة إنما هو انفصام نفسى . فهناك موقفان بدلا من موقف نفسى واحد ، أحدهما ، وهو الموقف السوىّ ، يضع الواقع موضع الاعتبار ، فى حين يعمل الثانى ، بتأثير الحوافز ، على فصل الأنا عن الواقع . ويوجد الاثنان جنباً إلى جنب . وتتوقف النتيجة على قواهما النسبية . فإن كانت الغلبة للأخير ، تحقق شرط الذهان . أما إن انعكست الآية ، حدث الشفاء الظاهر من المرض الهذائى . والواقع أنه قفل راجعاً إلى اللاشعور . كما أن هناك مشاهدات أخرى عديدة تحملنا على التقرير بأن الهذاء كان موجوداً قبل انطلاقه الظاهر بزمن طويل .

وما كنا لنولى وجهة النظر التى تسلم **بانفصام الأنا** فى كل ذهان كل هذا الاهتمام ، لو لم تجد ما يؤيدها فى حالات أخرى أقرب إلى الأعصبة ، وأخيراً فى الأعصبة ذاتها . وقد اقتنعت أولا بذلك فيما يتعلق بحالات الفتيشية . فهذه الحالة الشاذة التى يمكن إدراجها فى عداد الانحرافات ، تقوم — كما هو معروف — على كون المريض ، وهو رجل فى كل الحالات تقريباً ، لا يعترف بعطل المرأة عن القضيب ، وهو دليل بالغ الألم لديه على إمكان خصائه هو . لذلك فهو ينكر ما يشعر به إدراكه الحسى ذاته من انعدام القضيب من الأعضاء التناسلية الأنثوية ، ويتشبث بنقيض هذا القول . ولكن الإدراك الحسى ، وإن أنكره المريض ، لا يظل منعدم التأثير ، وهكذا لا يجرؤ المريض على ادعاء أنه قد رأى قضيباً بالفعل . إلا أنه يختار شيئاً آخر ، جزءاً من الجسم أو موضوعاً ينسب إليه دور القضيب ولا يستطيع التخلى عنه ، وهو فى العادة شىء رآه المريض الفتيشى حينما كان يشاهد الأعضاء التناسلية الأنثوية بالفعل ، أو هو بديل رمزى

للقضيب . ومع ذلك فليس من الصواب تسمية هذه العملية فى تكوين الفتيش انفصاماً فى الأنا ؛ بل هى توفيق يتم بمعونة النقل كما هو معروف لنا من الحلم . ولكن ملاحظاتنا لاتنتهى عند هذا الحد . فإن خلق الفتيش أساسه القضاء على احتمال الخصاء بحيث يستطيع المرء الإفلات من قلق الخصاء . فإن كان للمرأة قضيب ، مثل كل كائن حى ، فلا حاجة إلى أن يفرق المرء من أن يسلب قضيبه . ومع ذلك فإنا نلمس لدى بعض المرضى الفيتيشيين خوفاً من الخصاء يماثل خوف غير الفتيشيين ، وهم يستجيبون له على نفس النحو . ومن ثمة فإن سلوكهم يعبر عن رأيين متناقضين . فهم من ناحية ينكرون الوقائع التى يمدهم بها إدراكهم الحسى وهى أنهم لم يروا القضيب فى أعضاء المرأة التناسلية ، ومن ناحية أخرى يعترفون بخلو المرأة من القضيب ويستخلصون منه النتائج المترتبة عليه. ويبقى هذان الموقفان طوال الحياة جنباً إلى جنب ، دون أن يؤثر أحدهما فى الآخر . وهذا ما يكون تسميته بانفصام الأنا . وهذا الوضع يسمح لنا كذلك بتفهم كيف أن الفتيشية غالباً ما تظل ناقصة التكوين . فهى لاتفرض اختياراً قاصراً على موضوع بعينه ، بل تترك مكاناً — بقدر متفاوت — لمسلك جنسى سوىّ ، بل قد تؤدى أحياناً دوراً متواضعاً أو لا نكاد نستبينه . ومن ثمة فإن فصل الأنا عن واقع العالم الخارجى لاينجح ألبتة تمام النجاح لدى الفتيشية .

ولا يعتقدنّ امرؤ أن الفيتشية حالة استثنائية من انفصام الأنا ؛ بل كل ما هنالك أنها موضوع دراسة لهذه الظاهرة دراسة ملائمة على وجه التخصيص . فلنعد إلى تلك الواقعة التى أشرنا إليها ، وهى أن الأنا الطفلى ، مدفوعاً بتأثير العالم الواقعى ، يتخلص من المطالب الغريزية المرهوبة ، بما يسمى بعمليات الكبت . ولنكملها الآن بإضافة واقعة أخرى : هى أن الأنا إبان نفس العهد من الحياة ، يلفى نفسه مضطرًّا فى كثير من الحالات إلى مغالبة بعض المطالب الأتيمة للعالم الخارجى ، مستعيناً فى ذلك بإنكار الإدراكات الحسية التى تظهره على مطالب الواقع . وحالات الإنكار هذه كثيرة الحدوث ، ولا تقتصر على الفتيشيين وحدهم . فكلما أتيحت لنا فرصة دراستها ، تكشف لنا باعتبارها

نصف إجراءات ومحاولات ناقصة للانفصال عن الواقع . والإقرار يكمل الرفض دائماً ، فينشأ موقفان متعارضان مستقل أحدهما عن الآخر ، مما يفضى إلى انفصام الأنا ، وتتوقف النتيجة ثانية على مدى شدة كل من الموقفين .

والوقائع الخاصة بانفصام الأنا التى وصفناها هنا ليست من الجدة والغرابة بالقدر الذى يمكن أن تظهر به لأول وهلة . فإن السمة العامة للأعصبة هى قيام سلوك معين على موقفين مختلفين فى الحياة النفسية لدى الفرد ، موقفين متعارضين ومستقلين أحدهما عن الآخر ، وإنما يكون أحد الموقفين إذ ذاك مرده إلى الأنا والموقف المضاد مرده إلى الهو بوصفه مكبوتاً . والفصل بين الحالتين فصل طوبوغرافى أو بنائى فى جوهره ، وليس من اليسير دائماً القطع بغلبة أى من الموقفين فى كل حالة فردية . ومع ذلك فإن بينهما طابعاً مشتركاً هاماً يتبين مما يلى : فأيا كان الموضوع الذى يوجه إليه الأنا جهده الدفاعى سواء كان جزءاً أنكره من العالم الخارجى الفعلى أو مطلباً غريزياً استبعده فى العالم الداخلى ، فالنتيجة لا تكون كاملة ثابتة ألبتة ، إذ يظهر دائماً الموقفان المتعارضان ويؤديان كلاهما — بما فيهما الموقف الخاضع الأضعف — إلى خلق صعوبات نفسية . ولنضف مرة أخرى أن إدراكنا الحسى الشعورى لا يسمح لنا بأن نعرف إلا جزءاً ضئيلا من هذه العمليات كلها .

الفصل التاسع

العالم الداخلى

لا سبيل إلى عرض معارف معقدة متجاورة إلاّ بوصفها على التوالى ، لذلك يؤخذ على عرضنا فى المحل الأول تبسيطه المغرض فهو على وجه العموم فى حاجة إلى استكمال حتى يستقيم .

إن تصور الأنا وسيطاً بين الهو والعالم الخارجى ، بحيث يتقبل مطالب الأول الغريزية ويسعى لإشباعها ، ويجمع الإدراكات الحسية من الأخيرة ، ويستغلها كذكريات ، ويلجأ إلى حفظ الذات حيال المطالب المبالَغ فيها من كلا الجانبين فيقاومها ، وبذلك يخضع الأنا — فى كل ما يتخذ من قرارات — لما يمليه عليه مبدأ اللذة المعدل ، هذا التصور لا يصدق إلا على الأنا حتى نهاية عهد الطفولة الأول (حوالى الخمس سنوات) . إذ ذاك يحدث تغير هام : إذ ينفصل جزء من العالم الخارجى ويصبح على الأقل موضوعاً جزئيًّا . ويندمج فى الأنا (عن طريق التوحد) — أى يصبح جزءاً مكوناً للعالم الداخلى . وتستمر هذه المنظمة النفسية الجديدة فى القيام بالوظائف التى كان يؤديها من قبل أفراد معيَّنون فى العالم الخارجى ؛ فهو يراقب الأنا ، ويصدر إليه الأوامر ، ويقوِّم اعوجاجه ، ويهدده بالقصاص ، تماماً كالوالدين اللذين حل محلهما . هذه المنظمة نسميها الأنا الأعلى ونشعر بها وهى تؤدى وظائفها القضائية ، بمثابتها ضميرنا . ومما يسترعى النظر أن الأنا الأعلى يظهر فى أغلب الأحيان قسوة لانجد أصلاً لها عند الوالدين فى الواقع . فهو لا يكتفى بمحاسبة الأنا على أفعاله فحسب ، بل يحاسبه أيضاً على خواطره ومقاصده التى لم تنفذ والتى يبدو أنه على علم بها . ولنذكر أيضاً أن بطل أسطورة أوديب استشعر الإثم على ما اقترف ، وأنه عاقب نفسه ، وإن كان يجب تبرئته فى نظرنا وفى نظره لما قضت

به النبوءة . والواقع أن الأنا الأعلى وريث عقدة أوديب وهو يقوم أولا بانتهائها. لذلك فإن قسوته المفرطة لا تحاكى نموذجاً واقعياً ولكنها تقابل قوة الدفاع الموجه ضد إغراء عقدة أوديب . ولا شك أن الفلاسفة والمؤمنين قد لمسوا هذا المعنى عندما قرروا أن التربية لا يمكن أن تغرس فى الناس حاسة خلقية ولا يمكن أن تكسبهم إياها الحياة فى مجتمع ، ولكنها تنبع فيهم من مصدر أعلى .

ويصعب التمييز بين مظاهر الأنا والأنا الأعلى ما داما يعملان فى توافق تام، ولكن التوترات والخلافات بينهما يمكن ملاحظتها بوضوح تام . فإن عذاب وخز الضمير يقابله لدى الطفل قلقه من فقدان الحب ، وهو قلق تقوم المنظمة الخلقية مقامه .

ومن ناحية أخرى ، عندما يقاوم الأنا بنجاح إغراء بإتيان ما يأنف منه الأنا الأعلى ، فإنه يشعر بزيادة اعتباره لذاته ، ويعظم اعتزازه بنفسه ، وكأنه كسب مكسباً قيماً . وعلى هذا النحو يمضى الأنا الأعلى فى القيام بدور العالم الخارجى تجاه الأنا ، وإن كان قد أصبح جزءاً من العالم الداخلى . فهو يمثل طوال عهود الحياة اللاحقة ، أثر عهد طفولة الفرد ، وما تلقاه من رعاية وتربية واعتماد على الوالدين ، تلك الطفولة التى تمتد عند بنى الإنسان فى الحياة العائلية المشتركة . والعامل الفعال فى كل هذا ، لا يقتصر على صفات الآباء الذاتية ، بل يشمل كل ما أثر فيهم ، والميول والمطالب الخاصة بالظروف الاجتماعية التى يعيشون فيها، كما يشمل مميزات عنصرهم وتقاليده . ويمكن لأولئك الذين يميلون إلى التعميمات والتمييزات القاطعة أن يقولوا إن العالم الخارجى الذى يلقى الفرد نفسه بين ظهرانيه بعد انفصاله عن والديه ، يمثل قوة الحاضر ، وأن الهو عنده بميوله الموروثة يمثل الماضى العضوى . وأن الأنا الأعلى الذى يلحق بهما فيما بعد يمثل قبل كل شىء الماضى الحضارى الذى يتعين على الطفل أن يبعثه ويحياه ثانية أثناء سنى طفولته . ولكن ليس من المحتمل أن تكون هذه التعميمات صادقة صدقاً تاماً . فلا شك أن بعض المكاسب الحضارية قد تركت راسباً فى الهو . ثم إن الكثير مما يأتى به الأنا الأعلى يجد صدى له فى الهو ؛ وما يحياه الطفل لأول مرة يزداد قوة لأنه ترديد لخبرة سلالية أولى . « وما ورثته عن أسلافك ، اكتسبه كيما يصبح ملكاً

لك »[1] . وبذلك يتخذ «الأنا الأعلى مركزاً وسطاً بين الهو والعالم الخارجى ؛ فهو يجمع فى ذاته بين تأثيرات الحاضر والماضى . وكأننا نعاين فى نشأة الأنا الأعلى نموذجاً من تحول الحاضر إلى الماضى » .

(١) [جوته : فاوست الأول] (المترجمان) .